

■ الملحق الرابع ■

محمد عبده وليو تولستوي

يوم 24-02-1901، صدر عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية قرار بالحرمان في حق الروائي المشهور ليو تولستوي (1828-1910). كان صاحب الرواية العالمية «الحرب والسلام» ينعم بالثروة والشهرة عندما بدأ في حدود سنة 1870 أزمة روحية حادة دفعته باتجاه التدين أولاً، ثم نقد الكنيسة وطقوسها ثانياً، وأخيراً إلى محاولة استكشاف المسيحية الأولى، مسيحية المسيح قبل قيام الكنيسة. أدان تولستوي التعصّب وتكفير الآخرين وشرعنة الحروب باسم الدين ودعا إلى اعتبار العقل الإنساني مرجع الجميع، كما دعا الأديان إلى التقريب بين البشر بدل التفريق بينهم وإلى الحوار من أجل الوصول إلى الحكمة المشتركة بين مختلف التقاليد الدينية. وحثّ على العودة إلى تعاليم المسيح الراضة استخدام العنف والمطالبة بالرد عليه بتحمل الظلم.

لم تقبل الكنيسة تأويلاته للإنجيل ومواقفه الدينية الجريئة فقصت عليه بالحرمان. واصل تولستوي بعد ذلك الدعوة إلى آرائه وحاول إقامة علاقات مع حكماء من ديانات مختلفة، واشهرت في هذا المجال مراسلاته مع غاندي (1869-1948) الذي تأثر بتولستوي وبمبادئه في قيادة الحركة الوطنية الهندية.

تتنزل مراسلات عبده وتولستوي في هذا الإطار، والراجح أنها كانت محدودة وتوقفت بسرعة إلاّ إذا أمكن العثور على وثائق أخرى في المستقبل. هل كان عبده يسعى إلى تعريفه بالإسلام؟ أم أنه أعجب بالاشترك في بعض الأفكار مثل العودة إلى الدين في بساطته [ص 185] الأولى، واعتبار أنّ التقديم المادي لا يقرب الإنسان من السلام ومن فهم طبيعة الحياة الإنسانية (هذه العبارة المشهورة لتولستوي ترد حريفاً في إحدى رسائل عبده إلى رشيد رضا)؟

لقد خلد ذكر تولستوي بفضل رواياته، أما كتاباته في الدين فقد أصبحت بعده أقلّ رواجاً، لكنّه ترك في حياته أثراً كبيراً بين معاصريه، خاصة في قضية علاقة الإنسان بالدين. فكان من رواد فكرة الحوار بين الأديان والتقريب بينها، كما يتضح من رسالته إلى عبده. أما رسالة هذا إليه فهي تؤكد انفتاح الأستاذ الإمام على التجارب الروحية العصرية، وأنه كان متابعاً لما يحدث خارج الفضاء الإسلامي ولا يستنكف أن يعبر بصراحة عن تأثره ببعض الأفكار خارج هذا الفضاء. [ص 186]

رسالة محمد عبده إلى تولستوي

(1904/04/18)

أيها الحكيم الجليل، موسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف بروحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شمس من أرائك. ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقت إلى الغاية التي هدى البشر إليها، فأدرت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى به ويرقى به جنسه. وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة واستعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

نظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم. وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء، كان مدداً من عنايته للفقراء. وإن أرفع مجد بلغته، وأحظم جزاء نلته على متاعبك في النصيح والإرشاد، هو هذا الذي سموه بالحرمان والإبعاد. فليس ما كان إليك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين. فأحمد الله على أن فارقوك بأقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم. [ص 187]

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل من أيام عمرك. وإنا نسأل الله أن يمدّ في حياتك ويحفظ عليك قوامك ويفتح أبواب القلوب لفهم ما تقول، ويسوق النفوس إلى الاقتداء بك فيما تفعل. والسلام.

مفتي الديار المصرية

محمد عبده

إذا تفضل الحكيم بالجواب فليكن باللغة الفرنسية فإني لا أعرف من اللغات الأوروبية سواها.

(تاريخ الأستاذ الإمام، ج 2، ص 623-624).

[ص 188]

ردّ تولستوي على رسالة عبده

تلقيت رسالتكم اللطيفة التي أجزلت لي الثناء، وما أنى أسارع بالجواب مؤكداً بالغ السرور الذي غمرني وأنا أتواصل مع شخص مستنير ينتمي إلى عقيدة أخرى غير التي ولدت عليها وتربيت، لكنه يشاركني نفس الدين. فالعقائد مختلفة ومتعددة، لكن لا يوجد غير دين واحد هو الدين الحقّ. أرجو أن لا أكون مخطئاً عندما توقّعت وأنا أقرأ رسالتك أن الدين الذي أدين به هو دينك أيضاً وهو الدين الذي يسلم بالربّ وشريعته. وشريعة الله أن تحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك. أعتقد أن كل المبادئ الدينية الحقّة إنما تصدر عن هذه القاعدة وأعتقد أنها قاعدة مشتركة بين اليهود والبراهمة والبوذيين والمسيحيين والمحمديين. وكلّما تضخمت الديانات عقائد وأحكاماً ومعجزات وخرافات إلا وأججت التفرقة والكراهية بين البشر. أما إذا كانت بسيطة نقيّة فهي تقترب من تحقيق المثل الأعلى للإنسانية، أي وحدة البشر جميعاً. لقد وقعت رسالتك مني وقوعاً حسناً بسبب هذا الاعتقاد؛ ورجائي أن يتواصل التراسل بيننا.

ما رأيكم في العقيدة البهائية وأتباعها؟

تقبلوا، سيدي المفتي محمد عبده، مشاعر الودّ من صديقكم.

(نصّ معرّب عن الفرنسية وأشكر الأستاذ بيار سيزاري بوري، مؤلف كتاب «تولستوي الآخر» L'altro Tolstoj – Bologna, 1995 لاستجابته لطبي البحث عن هذه الوثيقة في مجموع رسائل تولستوي ثم مدّي بها).